دور أدب بيرم
فى الوطنيات والنقد السياسى

بقلم: د/ عباس عجلان

عاش بيرم ما بين عامى ١٨٩٣، ١٩٦١ وتلك الفترة تعج بالعديد من التحولات السياسية، وتظهر خلالها تغييرات فى الحكام، وتشهد حربين عالميتين، وعالماً يموج بتجمعات وتكتلات سياسية.

فمصر يحكمها عباس حلمى ثم السلطان حسين كامل فى فترة الحرب العالمية الأولى، ويعقب ذلك ثورة تشترك فيها طوائف الشعب، وتسفر عن مطالب مصرية وأمانٍ وطنية، وتدخل فى مفاوضات، ويجلس على عرش مصر أمير يعرف الشعب ماضيه وتاريخه، الذى لا يؤهله إلى الجلوس على سدة الحكم فى مصر، ولكن تلك إرادة الإنجليز، ذلكم هو الأمير فؤاد، الملك فؤاد الأول ملك مصر.

ويظل يدير البلاد سنين عدداً حتى توافيه منيته، فيتولى الحكم من بعده ابنه فاروق الأول، والذى يظل فى ملكه حتى تباغته ثورة يوليو ١٩٥٢ ويطرد من البلاد، ويحدث صراع على السلطة، ولكن الأمر يستقر لجمال عبدالناصر.

وبطبيعة الحال، لم يكن لبيرم أن يدرك فنياً إلا الفترة الأخيرة من حكم الخديوى عباس، ولكنه أدرك بكل حواسه، الأمور فى عهد السلطان حسين كامل والملك فؤاد وفاروق والرئيس جمال عبدالناصر.

ومن الناحية الفنية، نجد بيرم يركز على الملك فؤاد وابنه، وجمال عبدالناصر.

وكانت مصر تقع فريسة للاحتلال الإنجليزى، منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر، ونشأ عن ذلك، أن طبعت المصالح بالطابع الإنجليزى، وسيطر الإنجليز والذين يتعاونون معهم، على إدارة المصالح السياسية، والمواقع ذات التأثير فى مصر.

ولم تكن إنجلترا وحدها هى صاحبة النفوذ، وإنما شاركتها فرنسا فى النفوذ الثقافى والفنى والاجتماعى، ووجدت الجاليات الأجنبية المختلفة والحمايات التى تنتمى إلى جنسيات غير مصرية، ومن ذلك أن بيرم التونسى كان يعيش تحت ظل الحماية الفرنسية.

وتغيرت تبعاً للأحوال السياسية، أحوال البلاد اقتصادياً وتعليمياً واجتماعياً، وكان ينعكس ذلك على الأداء المصرى، من الوزراء حتى الفقراء، ومن سادة المجتمع فى طبقاته الراقية حتى أدنى درجات السلم الاجتماعى.

وفشا فى المجتمع نتيجة لسياسات شتى وأساليب خاصة، أدواء تنال من البنيان الاجتماعى المصرى، مثل الرشوة والفساد السياسى «تزوير الانتخابات» شراء الأصوات، واستغلال الشعب: المتاجرة بأقواته، أغنياء الحرب، وظهرت تجمعات اللصوص والنشالين، والفتوات، وظهر الأدعياء فى الفن والأدب والسياسية والاقتصاد، وتوارى الأصيل، وبرز الدخيل الوافد، حتى أصبح الأمر يدعو إلى الثورة، فعصر من يتصدى لها؟ والفساد من ينبرى له؟ والأمراض الاجتماعية، التى نشأت نتيجة للسياسات المتصارعة، تحتاج إلى مبضع جراح، ينفى عنها الخبث، ويعيدها سيرتها الأولى.

وشعر محمود بيرم التونسى، يعبر عن الثورة السياسية، والنقد السياسى، ويدعو فى غير هوادة إلى التغيير والتعديل، بعنف أحياناً فيجتاح ما أمامه وبلين وإن كان فى لينه، يظل معبراً عن روح وطنه، وهموم شعبه، وخلجات

أمته، فهو يرنو إلى أن تنهض شعوب الأمة العربية من غفوتها، وتدرك خطورة ما حاق بها.

ولكن الشعوب كافة تأبى أن تتغير، وتذعن للضيم والخسف، وعجيب أن يكون هذا مصيرها، على حين أنها تمتلك روح الحضارة، ولكنها تفرط فيها، قانعة بما فيه، غافلة عن خطر يتهددها.

ويرسم بيرم صورة للواقع العربى، متمثلاً فى بعض أقطاره، واضعاً يده على الداء ومحدداً الدواء، ولكن الناس لا يدركون، ولا يستفيدون[1].

يا مصرى ونت اللى هاممنى من دون الكل
هزيل ويحسبك الجاهل عيان بالسل
من دى الكيوف اللى تصبر على كتر الذل
ونمت والعالم فايق قوم بص وطل
شوف الشعوب وانفض ودوب وارجع إنسان

* * *

واللى آلمنى. وبكانى أنت يا شامى
عالأكل نازل طول عمرك بارد حامى
وقلت لى لما نهيتك مصرى حرامى
لحد ما الجزار خلا جرحك دامى
والله الخروف سايب معلوف، ما يفوته جعان

* * *

(١) الأعمال الكاملة عدد ٤١ ص ١٣، ١٤، ١٥.

والمغـــربى المسلم راخـــر أبو زر فـــاشـــوك
لما انتـــقـــدته فـــزع قـــال لى يلعن بو أبوك
وأنا اللى قصدى أشوف قيده يصبح مفكوك
لقـــيـــتـــه فـــرحـــان به راضى طيب مـــبـــروك
خليك فـقـــيـــر دق البندير وكل التـــعـــبـــان

* * *

روح العـــراق راخـــر قـــول له كـــيف الأحـــوال
لأمـــتى نفـــضل يا أخـــينا بحـــزام وعـــقـــال
مـا تعـرف الجـاز يستـعـمل غـيـر للمـشـعـال
الطم بقى، وقـــول ويايه الجـــاز أمـــوال
وأوعى المداس، يفلت تحـــتـــاس وتقـــولى آمـــان

* * *

يا شـــرق فيـك جـــو منـــور.. والفكر ضلام
وفيـك حـــرارة يـــا خســـاره.. وبرود أجسام
فـيـك سـبـعـمـيت مليـون زلمة.. لكـــن أغنام
لا بالمسـيـح عـرفـوا مـقـامـهم.. ولا بالإسـلام
هـى الشـمـوس بتخـلى الـروس.. كدا هو بدنجان

وبيرم يدرك إدراكاً لا مربة فيه، أن السياسة، هى من وراء الأزمات التى يتعرض لها بنو البشر، فالسياسة، تجعل المصلحة والمنفعة، فوق الخير العام،

والسياسة، هى التى تفرق بين الناس، وتجعل بعض الشعوب لقمة سائغة لشعوب أخرى.

فالسياسة، تزرع الشقاق بين الناس،وتحل الخصام، محل الوئام، وهى التى تدمر العامر، وتقيم الحروب، من أجل طمع مؤقت، أو نفع لا يدوم.

فلولا السياسة لعاش العالم قرير العين، ينعم بشىء من الهدوء والدعة.

الأرض فوق اللى ساكنيها تساع أضعاف
يعيشوا فى بحبحه لو يعرفوا الإنصاف
والناس أهى فى المحبة ما فى بينها خلاف
الإندوسية يعشها «الماجور» جوستاف
والإنجليزى بيلهط بنت «برلين» حاف
ونا فى حارتنا «سوزان» يومى تقولى: عواف
مين اللى خلا البشر متنوعين أصناف
إلا سياسى خبيث من ربنا ما يخاف
يشعلل النار بخطبه ولا تلغراف[1]

ولكى نحدد الدور الذى قام به شعر بيرم التونسى، فى السياسة الوطنية، فلابد من التركيز على المحاور التالية:

أولاً ـ الاحتلال:

ونعنى به الاحتلال بالمعنى العام، سواء أكان احتلالاً عسكرياً أم ثقافياً أم اجتماعياً، فالمحتل وإن اختلفت صوره وتنوعت أساليبه، يدور حول استغلال

(١) الاعمال الكاملة «٦» ص د.

طاقات من يحتله، ليدعه من بعد جثة هامدة، ويعود هو إلى وطنه، بالأسلاب، والغنائم، والمكاسب، والنفوذ.

ففى مقامات بيرم مقامة عنوانها «المقامة الوطنية» يروى بيرم شعراً يقوله شيخ رشيدى لآخر صعيدى، حين علم أن مصر استقلت عن الإنجليز

قد قلتمو مصر استقلت

قلت قد قَلَّت بها البركات والأرزاق

ويعرض لموقف بعض المجاورين من قضية الوطنية، واختلاف الناس حول الإنجليز ما بين محب وقالٍ.

ويترجم بيرم فى شعره ذلك حين يقول:

الإنجليز عبط فعلاً،؟ ولا أنا اللى عبيط

فى الدنيا راضيين بعيشه كلها تلخبيط

دايرين بأسطول مالكها من محيط لمحيط

لكن جعانين يقيسوا الخبز بالقراريط

ويسلفوا المجرمين ويفرطوا تفريط

ويهبروا المحسنين، ويقرطوا تقريط

* * *

ناس بيقلولك أحياناً الإنجليزى بسيط

وناس يقولوا انتبه دا ابن حنت حويط

وحتى يستكمل تلك الصورة، يسجل فى مقاماته مدى نفوذ الإنجليز فى مصر وانخداع بعض السذج، بفتات الخدمات التى يلقونها.

ففى «المقامة السجقية» يعطى الضابط الإنجليزى كارتاً إلى مواطن ليقضى به حاجته، فيدرك مدى نفوذ ذلك الكارت، وكيف حل العقدة وكشف الغمة، فكتب إليه المواطن ساخراً من وطنه مصر، ومحرضاً الإنجليز عليه، وداعياً إلى تأييدهم.

زيدوا القيود قيوداً لا عدمتكو ... واستشهدوا الله والتاريخ والأمما

فلن تروا راجماً يأسى لبطشكمو ... يا أمة طرطرت من تيهها هرما

* * *

والله يبقي بريطانيا وعزتها ... ولا يذل لها كارتاً ولا قلما

وهناك امتيازات للأجنبى على أرض مصر، تحرم على ابن البلد، وتتاح لمن ليس منها، لكل أجنبى له فى مصر مكانة، وينال من الحصانة، ما لا يحصل عليه مصرى، وتمتد يده إلى كل شىء، وتفتح أمامه الأبواب المغلقة، وتكشف له الحجب، ليحصد ويثرى من عرق المصريين.

فهذا يتاجر فى أقواتهم، وذاك يبيع لهم السموم، وآخر يتحكم فى مقدراتهم.

ويصور بيرم تلك الامتيازات، فى قصيدة، تحمل ذات الاسم «الامتيازات»:

الكل دولة ف توحيده ... جات بلادنا البين

المبتليه بكوتاريللي ... عرة الخواجات

اللطخ فيهم بهابلته ... يكسب الملايين

والندل فيهم بسافلته ... باع لنا الكوكايين

واللى فرش لامه وخالته ... فرش في الدكاكين

الله لا يحمى، ولا يخلى ... يغمة امتيازات

والمحتل يريد أن يأخذ كل خير مصر، ويستنزف مواردها، ولا يدع لها غير الفقر وشاحاً، والذل سلاحاً.

ولكن محمود بيرم التونسى ينادى «المصرى»، ويبصره ويبين له مواضع الزلل، وأنه لابد أن يكون صلباً قوياً، يجابه الخطر بعزم لا يفتر، وهمة لا تلين، فنحن نستهلك، وهو يبيع ويكنز، والمستعمر يستغل، والمصرى يستذل، ولذا فلابد من السيطرة على المواد الخام المصرية، حتى تحفظ مصر استقلالها وحريتها[1]..

يا مصرى ليه ترخى دراعك ... والكون ساعك
ونيل جميل حلو بتاعك ... يشفى اللهاليب

* *

وأختك أنت اللى سوارها ... وكل شوارها
من عنده هو ومشطرها ... فى ملو الدواليب

* *

هناك يقابلوك فى فرنسا ... بذوق وموانسه
لكن جيبك، ولا تنسى ... تحت التشطيب

* *

ما تحط نفسك فى العالى ... وتتباع غالى
وتتف لى عللى فى بالى ... من غير تعييب

* *

وتقوله كرماً لضيوفنا ... لكن صوفنا
ما يتنفش إلا بكيفنا ... وبيد حبيب

(١) المجموعة الكاملة «٧» ص ٦، ٧، ٨.

والاحتلال له فى كل مكان عين، وفى كل موقع أثر، فرجاله يجوسون خلال الديار، ومصالحه لا تعد، ومخازنه تشهد على طمعه ونيته، وله مدارسه وأديرته.

وبيرم يتعجب من كثرة الدول المحتلة، ومالها على أرض مصر، فيقول:

سبع دول فى البلد رافعين بنادرهم

ده له على أرضها مخزن وده له دير

وتخرج من صدره آهه تشق نياط قلبه، وتعرب عن أسف دفين، وجرح عميق، حين يتحدث عن الاستعمار، وكيف أثر فى البلاد والعباد، وطمس معالم المدنية والدين، وعاث فى الأرض فساداً.

وبيرم يطلقها زفرات نيرانية، تشبه الطلقات، مصوبة إلى كل مصرى وعربى ومسلم، يكنى ويصرح، ويجمل ويشرح، ويؤلم ويجرح، وينقد وينصح.

فقد كتب تحت عنوان «الاستعمار» تلك الزفرة التى تخرج من مصدور:

الأوله آه، والثانية آه، والثالثة آه

الأوله.. شطبت تونس من الإسلام.. وجزاير طواها البين

والتانية.. تحكم بلاد الهند والأهرام بآشاير وغمزة عين

والتالتة.. حطت على حكم العراق والشام بذخاير وطيارتين

* * *

الأوله.. لما كل المسلمين صارت خدم وعبيد

والتانية.. حطوا بناتهم قشلاقات فارت بنار وحديد

والتالتة.. أسعارنا فى سوق الغنم بارت نهار العيد

* * *

الأوله.. أمـــه خـــايبـــه والتـــاريخ مـــعلوم

والتـانيـة..جـات ضـاربه صـايبـه من بـلاد الروم

والتـالتـه قـول جـاتنا نـايبـه والكلام مـفـهـوم

الأوله آه.. والتانيه آه.. والتالته آه..

ثانياً ـ الملك:

لمحمود بيرم التونسى، شعر كثير فى الملك فؤاد رحمه الله، وكذلك فى ابنه فاروق.

وربما كان شعره فى فؤاد، من أقوى شعره السياسى، وأشده جرأة، ولا تزال قصائده، تروى وتحفظ، وتثير حتى الآن.

ولربما يرجع ذلك إلى الموضـوع ذاته «تناول العـرض»، ثم لأنه يتـعلق بشخصية ذات شأن وسلطان وجبروت، والناس أعداء من يملك، ولجرأة الزجل وخطورته، ولما يتمتع به بيرم من مقدرة على توظيف الرمز والإيحاء، حين يكون التلميح، أبلغ من التصريح، والتقحم، حين يتطلب الموقف، كشف العورات، وإظهار السوءات.

وإن كنا لا نجاريه فى قذف العرض. والتشهير، فذلك ليس بفن راق، ولا بنقد يرتفع عن الأغراض والمساومات.

وبيرم التونسى يرى أن الملك فؤاد صنيعة الإنجليز، وأنه جيء به على حين غفلة من الدهر، وأجلسه سادته الإنجليز، على عرش مصر ملكاً متوجاً، فلابد أن يذل ويخضع، ويسمع ويطيع، ويغدو لعبة وأضحوكة، ومهدوا له فى الغى على أن يذل المصريين، فكانت ولايته نكبة، واختياره صدمة.

وتحت عنوان «مجرم ودون» يقول بيرم:

ولما عـــدمنا بمصـــر الملوك جابوك الإنجليز يا فؤاد قعدوك
تمثل على الشـــعب دور الملوك وفين يلقوا مجرم نظيرك، ودون
وخلوك تخـــالط بنات البـــلاد على شـرط تقطع رقاب العبـاد
وتنسى زمـان وقـفـتك يا فـؤاد على البنك تشحت شوية زيتون
بذلنا ولســـه بنبـــذل نفـــوس وقلنا عسى الله، يزول الكابوس
ما شفنا إلا عرشك يا تيس التيوس لا مصـر استقلت، ولا يحـزنون

وكانت نقطة الارتكاز عند بيرم، فى هجومه العنيف على الملك فؤاد، أنه يسرف على نفسه فى اللذة، ويتخذ من القصر وكراً وحانة، حتى ما رزقه الله به لم يسلم من وبال نزواته، فأتى قبل أوانه.

ولعل قصيدته «البامية السلطانى» تعبر عن ذلك حيث يقول:

الباميه في البستان تهز القرون وجنبهـا القـرع الملوكى اللطيف
والـديـدبـان دايـر يـلـم الـزبـون صهين، وقدم وامتثل يا خـفـيف
نـزل يلعلط تحت برج القـمـــر ربك يبـارك لك في عـمـر الغـلام
يا خـــســـاره بس الشـــهـــر كـــان مش تمام

ويكرر الصورة فى قصيدة أخرى، ليس فيها من جديد غير إبراز بؤس الشعب المصرى، وليس فى مقدوره أن يتحمل ذلك الدنس، أو يسكت على هذا المنكر، أو يلحس دى التفة، على حد قول بيرم.

اســـمع حكاية بعـــدها هأهأ زهر الملوك في المولد أهو طأطأ
مـالناش قـرون كنا نقـول مـأمـأ وناكل البـــرســـيم بالقـــفـــه

* * *

«فـاروق» فـارقنـا أمـال بـلا نيـله　　دي مـصـر مش عـايـزاها رذيله

دي عـيـشـه بـالقـوة وبـالتـيـله　　ومين يبـقى يلحس دي التـفـه

* * *

ولعل أعنف ما وجهه إلى الملك ـ وإن كان فى ذات الموضوع ـ قصيدته ـ بالقرع السلطانى ففيها ألفاظ مكشوفة، وجمل سافرة، ومعايير متبرجة متقحمة، ونكتفى منها بما يدل:

البنت من زمـان تتـمـخطر　　والغفلة زارعه في الديوان قرع اخضر

الوزة من قبل الفرح مـدبوحـه　　والعطفة من قبل النظام مفتوحه

يا راكب الفيتون وقلبك حامى　　حود على القبة وسوق قدامى

تلقى العروسه شبه محمل شامى　　وأبوها يشبه فى الشوارب عنتر

دا ياما مـزع كل بدله وبدله　　وياما شمع بالقطان والفتله

ولما جـه الأمـر الكريم بالدخله　　قلنا اسكتوا خلو البنات تتستر

مـرمـر زمـانى يا زمـانى مـرمـر

ومثل هذا القول لا يمكن أن يقال ـ فى زعمنا ـ إلا إذا كان وراءه من يدفع به، ويحرض عليه، من أعداء فؤاد، أو نساء الأسرة المالكة، الذين لديهم إحاطة ببواطن الأمور، فمن وراء ذلك، مقاصد سياسية، وغير سياسية.

والشاعر الشعبى ابن البلد، يحمل له كل شىء يذكره دلالة، فالقرع له دلالة إيحائية تفوق دلالته العامة، وكذلك «الباميا».

وإذا كان أمير الشعراء قد استقبل توت عنخ أمون بقوله ملمحاً بذلك للملك فؤاد:

زمـان الفـرد يا فـرعـونى ولى ودالت دولة المتـجـبـريـنا

فإن بيرم يوظف خطابه لملك مصر القديم، ناقداً مصر الراهنة وملكها، فى أداء جيد، وتصور أخاذ.

فى مـصـر كنت الملك لك جـيش ولك حـامـيـه
فى دولـه غـيـر دولتك مـا تـتـعـمل مـومـيـا
وأمـه غـيـر أمـتك مـا تزرع البـامـيـا
ولما خـشـوا عليك المقـبـره يلاقـوك
نايم مـفـتح ولكن فى بلد عـامـيـه

ولقد نفى بسبب هجومه مرتين، وعاد سراً إلى مصر، ومدح الملك فاروق وهاجمه، ثم اعتذر عن مديحه بعد الثورة، فى قصيدة زجليه حيا بها عيد الثورة، واستخدم اللازمة القديمة المعروفة «مرمر زمانى يا زمانى مرمر» ومستغلاً توافق عيد النحر مع عيد الثورة ليقول:

ياللي أقمتم في الحجاز أفراحكم أفراحنا هيه في الوطن أرواحكم
إبليس رجمتوه فى منى وارتحتم واللى رجمناه الطاغوت الأكبر
مـرمـر زمـانى يا زمـانى مـرمـر
يارب سامحنى دا انت الغافر تفرح إذا استغفر وتاب الكافر
وقفت أقول يا متقى للفاجر ويا خليفة الله لشيخ المنصر
مـرمـر زمـانى يا زمـانى مـرمـر

وكان قد كتب شعراً فيه اعتذار وندم ومديح للملك فاروق، ونشر فى جريدة الأهرام، تنفيذاً لخطة دبرها ثلاثة محمد محمود باشا رئيس الوزراء،

ومحمود فهمى النقراشى وزير الداخلية، وأحمد حسنين باشا رجل القصر.

كما أنه كتب عن الثورة وحياها، ولاسيما عن جمال عبدالناصر الذى منحه ـ الجنسية المصرية عام ١٩٥٤ .

وتحدث عن حادثة المنشية بالإسكندرية، وعن عدوان بورسعيد، وعن الوحدة بين مصر وسورية وعن السلام.

ثالثاً ـ الوزراء:

لبيرم شعر كثير فى الشخصيات العامة، كالوزراء ورجال الدولة، ويمكن أن نقسمهم إلى قسمين.

١ ـ من رضى عنهم من أمثال سعد زغلول باشا، وأحمد باشا ماهر، وعبد العزيز فهمى، والصوفانى، والمكباتى، وحمد الباسل.

٢ ـ من سخط عليهم مثل: عدلى باشا يكن، زيوار باشا، مصطفى النحاس باشا إلى غير ذلك، وسنحاول أن نعرض فقط نموذجاً من كل نوع.

فمن القسم الأول سعد زغلول: تلك الشخصية الفذة التى التف حولها المصريون، ورأوا فيه رمزاً للخلاص، فقد تمثلت آمالهم فى سعد زغلول.

فعند حديثه عن الوفد، يستخدم المطلع الذى قاله المصريون للخديوى عباس «قولوا لعين الشمس ما تحماش». فهو يستهل قصيدته بذلك الاستهلال، الذى يعبر عن حبه وتوقيره لسعد ودوره.

اطلع نهار الجمعه فوق المنبر ... وقول يعيش سعد الرئيس الأكبر

قولوا لعين الشمس ما تحماشى ... إلا رئيس الوفد صابح ماشى

سمع طبول الحرب ما ستناشى ... وقال وكيل البنت لازم يحضر

يا يوم مبارك يوم ما شفت بلادك ... والأمة حولك كلها أولادك

والغيظ دخل قطع قلوب حسادك　　لما على إيدك بلاد تتحرر
أهلاً وسهلاً قلتها من قلبى　　لله في لله واللى عالم ربى
الدنيا تعرف وانت تعرفى حبى　　واللى جرى لي، والمنافق يظهر

ويستقبل لجنة «ملنر» بعمل فنى، يتغنى فيه بسعد، ورجاله المصريين من بنى زغلول، ويصف أعداءه بأنهم «زعاليك» كما ينعت سعد زغلول «بالأمير زغلول» فى لحن يغنى على الربابة، ويشجى أبناء مصر، ويترنم به المترنمون طرباً ونشوة.

أصلى على المبعوث نبينا محمد المنتخب للخلق يوم الشفايع
ركبت بنى زغلول تزيح الأعادى خرجت لها الزعاليك طلايع طلايع
حاشت بنى زغلول كلاب البوادى ومين يحوش الكلب، والكلب جايع
قالت بنى الأحرار نحارب بسيفنا قال الأمير زغلول دى حرب الشرايع

فهو يحب سعداً، ويشايع المصريين فى ذلك، وتشعر من شعره بصدق وإيمان، وتدرك من وراء الألفاظ، مدى يقينه الوطنى.

فأما الشخصية التى من المغضوب عليهم، فهى شخصية «زيوار باشا» ومن المعروف أن أحمد باشا زيوار كان رئيساً لوزراء مصر، وكان يمتاز بالسمنة المفرطة، وقد جاء إلى الحكم لينقذ ما يمكن إنقاذه، وهو يتخذ من ثرائه وجاهه، وسائل حكمه، وليس لديه من عزم فى حرب أو سلم، وكان يهادن الإنجليز، ويحاول ما استطاع أن يكتب معاهدة يكبل فيها مصر، ولكن بيرم يندد به وبسياسته، ويهدد المستعمر بصحوة وطنية ورفض شعبى.

يقول بيرم راسما صورة ضاحكة، مؤلمة[1]:

سألت «زيوار» وزيور صنعته حاكم　　يحكم ولاد العرب بالسحر والخاتم

(١) المجموعة الكاملة ٦ ص ٥١، ٥٢.

الملك لا يحـــارب ولا يخـــاصـم　　اللورد «جاك» بالأمانة يعلم أنه قولى

ياللي الخروف أكلتك واللغد متدلي　　رمي «الماتان» من يعينه والتفت قالي

بعـد المعـاهدة أقـولك على السـبب يا رذيل

قلت المعاهدة البديعة باينه يا مونشير　　بالحبر دول لغموطنا والله بشرة خير

الحبر يقعد وهي تنكتب باتير　　يقراها ولد الولد ويسب بالإيمان

فيها الجنود داخله أكثر من الجنود بزمان　　والطيارات الدخيلة لأمنا درمان

تطبق المادة ١٦ بـبـــــمب تقـــــيل

ارجع السير كين بويد سيد الجميع وأقول　　يجعل كلامنا عليك سخسع خفيف معقول

امسك معايا القلم أحسن أنا مسطول　　مخ اللي شاور عليك بالحبر دا مضلم

يوم المظاهرة الجدع بالدم متعلم　　أما اللى يهرب نهار الهول ويسلم

عـويل ومن يجـرى بعـده يبـقى زيه عـويل

رابعاً ـ محو الشخصية الوطنية وتقاليدها:

حرص الاستعمار، على محو الشخصية الوطنية، وطمس معالمها، وما لها من قيم وجذور، حتى يسهل أن تجتث وتستأصل، وتكون تبعيتها وهواها مع الدخيل الغربى، فتعادى كل أصيل شرقى.

وقد فطن بيرم التونسى إلى ذلك المزلق الخطر، ونبه مراراً إلى ما نحن مقدمين عليه، من مخاطر، وضياع.

وكثيراً ما تحدث بيرم عن تقليد الغرب، وأخذ قشرة المدنية، وترك فحوى الحضارة، فنحن لا نعرف غير ما يروق ويخاطب ويطلق للشهوات العنان، كما أننا نعيش فى أجيال، لا تقدس إلا المودة والجديد، وإن كان فيه الخطر الماحق.

ففى سخرية مرة، يرصد ما تم من تغيير فى مصر، من محو لشخصيتها، ووأد لتقاليدها، وينصح الزعماء الذين يتعارضون حول القضية المصرية، أن يدعوا القانون جانبا، والفقه الدولى، ويقولوا هذه الحقيقة للعالم الغربى، حتى يعطينا حقنا، فقد حقق مآربه، ورأى مكاسبه.

يالللي رايحين مجلس الأمن اسمعوني ... فضكم م الفقه والبحث القانونى
كلمتين حلوين قولوهم وافهموني ... يمكن الحكام يرقوا ويفهمونا..
فهموهم باللطافه وبالمحبه ... إن مصر الحلوه حته من أوروبا
من زمان تزحف، وتحبي حبه حبه ... لما فاقت عن فِينًا وبرشلونه

* * *

الديانة قبل منكم ألغناها ... والشريعه عن نابليون مشيناها
والمصاحف في المتاحف حطيناها ... منها ذكرى، ومنها فرجه ومنها زينه
وانتهى عهد البراقع والملايا ... والنسا للركبتين ماشيين عرايا
أمي واختي وزوجتى أهم رايحين معايا ... عالبلاج والدنيا تتفرج علينا
زيكم في كل شيء يا اهل الحضاره ... زيكم بايتين على البوكر سهارَى
والحانات من كل نوع في كل حاره ... عيب عليكم بعد ده تستعمرونا
اتركونا ننتفع من خير بلادنا ... مش بلادكم واسمحوا نسبك حديدنا
مش حديدكم والسماد عايزين سمادنا ... مش سمادكم يالللى ناوين تدبحونا

والناس فى مصر، قد أصابهم جنون باريس، فهم يعضون على متابعتها بالنواجز، ويحملون أنفسهم حملاً على الاقتداء بها، والسير على نهجها، ويسجل بيرم فى ذكاء تلك الصورة:

«باريس» تقول قصروا الفساتين نقصرها

ترجع تقول طولوا ـ حالاً ـ نجرجرها

وف الشتا قوروا القمصان نقورها

وتقول باريس احلقوا الشنبات نحلقها

وتقول لنا الدقن مودة ـ دوغرى ـ نلزقها

وتقول استعملوا الشورتات.. نسبقها

وتقول كمان اقلعوا الطرابيش نكعورها

يارب تسلم باريس.. وتصوم وتصلى

وتكون مودتها سبح ولا طرح توللى

علشان ما تصبح سعاد، وام الهنا، ونيللى

غير ربنا ذو الجلال ما يشوفش ضوفراها

ولم يقتصر دور الذوبان ومحو الشخصية عند هذا الحد، بل إن الناس قد أقبلوا على سماع الأمر بالمعروف من غير أهله، فالعظة لا تقبل من شيخ، ولكن من متهالكة متبرجة، تخالف فعلاً قولها، وهذا ما جعل بيرم، يخاطب «الشيخ أبو العيون» وهو من كبار علماء الأزهر، ومن الذين كانوا يحاربون مظاهر الفجور، بقوله ـ متحدثاً عن مظاهر التغريب، والمحو.

يا أبو العيون ياللى أنا ـ وأنت ـ خلاص فلست

والناس قالولى وقالولك يا عجوز ـ هلوست

راح الزمان اللي بيقولوا المواعظ فيه على المنابر، وقامت توعظ الأرتست

أرتست تكشف على المسرح بدن بنور وتقول آيات في الهدى والمعرفه والنور

ينجح كلامها وترفع للسما الجمهور　　تعال نهرب ونستخفى في قعر الدست
شهر الصيام والقيام أحيوه بمزيكه　　والنشنى في الفجر بيصور لنا سيكه
زي اللي حاصل في أوروبا وأمريكا　　في كل معبد تشوف جنب القس بيانست
حي الحسين النهارده حي لاتيني　　وفيه تصلى كاميليا وزوزو وكويني
والله أكبر على المادنه تناديني　　وأنا في شيش معاهم للصبح طلمست
الفن قالوا روايه تكشف الظلمات　　والذي يشرف وغنوة تفتح السماوات
كدا قالوا لنا الأئمة الأربعه البهوات　　سالم ويوسف وأنور والواد الريالست

من أجل ذلك، أصبح الواعظ التقليدى منبوذاً، وبغيضا، ينفض الناس من حوله، ولا يسمعون لقوله، لما يناله من سخرية ونفور، يقول بيرم عارضاً وناقداً:

سكتت على المنكر قس ومشايخ　　واللي بيوعظ زى حالي دايخ
واحده قالت لي والنبى إنك بايخ　　والثانيه قالت يبتليك برزيه
حتى اللغة تنكر لها الناس وتخلصوا　　منها ورأوا حضارتهم في لغة أوروبيه

فإذا ما تكلم أحدهم بلسانه العربى، فهو غير مبين، ولا يحسن مخارج حروفه، كأنه يتأبى على لغته، ويحتقر أهلها.

وقد صور بيرم كلام فتاة من هذا النوع فى قصيدة «ضبة معووجه».

قالت لى فى أتر تنتا ركبونا العسر

«معناها فى قطر طنطا ركوبنا العصر»

اتعتل الأتر ووسلنا محطة مسر

«اتعطل القطر ووصلنا محطة مصر»

بالزبت قرب العشا واتسور العتله

«بالضبط قرب العشا، واتصور العطلة»

حادث تسادم دحاياه أربعة اتلى

«حادث تصادم ضحاياه أربعة قتلى»

قلت لها بتصلى؟ قالت لى.. السلا.. ها ها

زمان ونا سغيره سليت ونسياها

وكنت حافذة لحد الشمس ودحاها

واللى يصلى النهارده يعملوه مثله

يا طنطاوية يا قنية البط والكتاكيت

لا فى الفرير كنت داخلية، ولا الجيزويت

بتقلدى ليه سكرتيرة «ميشيل كرابيت»

يا للى على كل أكله تجرشى بصله

خامساً ـ نقد بعض مظاهر سياسية فى المجتمع:

نشأ عن السياسة سلوك شعبى، لم يسترح له بيرم، ورآه آفة تنذر بالويل والثبور، مثل الاعتماد على الحكومة فى كل شىء، وعشق الوظيفة، والرشوة، والتحكم فى مصالح الناس، وإذلال المواطن، والإهمال المتعمد، والسرقة المقننة، والنفاق المريب، والتضييق على الممتازين، وقتل المواهب، ووأد الطموح، وإرهاق العامل والفلاح، والطبقات الكادحة، وهى التى تشقى وتمنح وتحرم وتذلح، فمن مثل بيرم، الذى جأر قائلاً:

ماهيش سياسه ولا عداله الأمه نصها شغاله

ونصها التانى عاله يتبط.. ويقول رمونى

فإنه يسره أن يدفع الضرائب، على أن تذهب إلى ما يفيد، وتغدو مشاريع ذات جدوى.

يسـرنى ويهنينى ادفع ضرايب على عيني
أدفع ألوفى وملايينى لكن تعالوا حاسبونى
أكون سعيد وأكون شافع لو تنصرف على شيء نافع
مثلاً مصانع ومدافع ولا على القصر العينى

وكيف تنصلح السياسة، وتصلح أحوال الناس، والسياسى محتال، يراهن فى كل سباق ويغير جلده، وليس له من مبدأ، إلا النفع الذاتى، ولا من غاية غير الوجاهة، والحصانة.

فهذه صورة السياسى، كما رسمها بيرم، ولك أن تتخيل ما يعود على الوطن إذا تمكن هذا من مقدراته.

عمل محامي مانجحش عمل صحافي ما فلحش
طبع كتاب ما اتوزعش وف مصر كام تكسب يا كتاب

* * *

الحزب يافطه وإداره وشله من أهل الحاره
ويجى يوم تبقى وزاره ويافطه حمره عا الأبواب

* * *

ويا الحكومة يا معارضه يا نبقى من الشركات أعضاء
بأيها حاله نرضى وبأي شيء يرضى النصاب

ونواب الشعب، لا يمثلون إلا طمعهم ومآربهم، ويتخذون من المجلس

رداء ليستولوا على كل شيء، وقد وجه بيرم جزءاً كبيراً من شعره، للنواب فى البرلمان، وفضحهم، وحاول أن يحرك الوعى السياسى لدى الجماهير، ولكن هيهات، ففى قصيدته «البرلمان اللى فات» يعدد سوءات النواب، واتخاذهم البرلمان، ذريعة لمآرب.

في البرلمان اللي فات عدينا كام سمسار — السمسره صنعه أصلي والنيابه ستار

سمسار معاه الحصانه والحصانه جدار — يستر جرايم تدخل مرتكبها النار

سمسار في جيبه قضايا الناس في أجنده — عن عمده ينشال وغيره يتعمل عمده

ومهندس الرى يترحل لأوغنده — وأذن تصدير يصدر ألف طن خضار

ولذلك فهو يحاول مراراً إيقاظ الوعى لدى صاحب الصوت، حتى يحسن الاختيار، ومن النماذج التى نختارها لبيرم، موال صغير اسمه «أوع إللى مضى ينعاد» يقول:

يوم الهياج والعواصف يظهر الصياد

يصطاد وجاهه وهيبه ومنظره وإيراد

ويقول اسمه ربيع تانى وهو جماد

من قبل ما التذكرة تنحط فى الصندوق

اقلب وعاير، واوعى اللى جرى ينعاد

وفى لقطة أخرى، مثيرة وذات مغزى، يذكر كيف أن النواب، يخافون من الوزراء ويتذلفون لهم، رغباً ورهباً، والنائب لا يحضر إلا لاماما، ولكنه يغيب ولا يمثل إلا مصالحه، يقول تحت عنوان «نايب حارتنا»

فى البرلمان اللى فات اللى امتلا محاسيب

كـان يجـرى قـدام عنينا كل أمـر عـجـيب
فـيـه لما كـان الوزير يشـخط مـا يلقى مـجـيب
واحنا اللى يـامـا هتـفنا لهـم وصـوتنا
نايب حـارتنا فى يوم يحـضـر، وعـشـرة يغـيب

وهكذا يصور بيرم فى شعره، الحياة السياسية والوطنية، مبيناً ما فيها من إيجابيات وسلبيات، ونستطيع أن ندرك مدى الصدق فى التصوير، والانفعال الفنى فى الرسم الأدبى، إذ لا تزال بعض تلك الصور ماثلة أمامنا مشاهدة مقيمة.

وهى تحتاج إلى شاعر مرهف، يرصد حركة الحياة السياسية، ويسبر أغوارها، ويكون أمينا صادقاً، مثل ما قام به محمود بيرم التونسى، الذى سيظل شعره فى خلود، لا جمود، لأنه تعبير فنى، يفيض عذوبة وسلاسة، وفطنة وكياسة، وحذقاً وسياسة.

والفنان الحر، لا ترضى عنه الناس قاطبة، لأنه لا ينافق، فإذا رصد عيبا وأظهره، تألب عليه أنصاره وأعوانه، وهكذا عاش بيرم ما بين سخط ورضا، وعتب وعجب، وقبول ورفض، وخلصاء وأعداء.

وقد وطن نفسه على ذلك، وفهم دوره، ودور أدبه، فأرضى رسالته، وأدى أمانته، وإن غضب الغاضبون، وكره فنه الكارهون يقول:

إن كـنـت تـرضـي المـزارع ... يغـضـب السـمـسـار
وإذا رضـيت الكيـمـاوي ... يـزعـل الـنـجـار
وإذا مـسـكت الحـرامي ... تـزعـل الـفـجـار
وإذا تـركـت الحـرامي ... يـزعـلـوا الأبـرار
وانـت اللـي تـسـهـر ... وتـشـبـع أمـتك تشـخـيـر

وأكـــتـــر النـاس وقـــايـل لـك إلـه الـنـاس

«لا يشكرون» حـتى لو حَـدَّك عـملتـه مـداس

«لا يعلمـــون» اللى يخـــدمـــهم من الهـــلاس

خـلـيك مـع الله تـلاقـى الـعـــالحـــين وياك

الصـــالحـين لو يقلوا فى المهـــمـــة كـتـيـــر

■■■

obeikandl.com